الباب السادس
التأثيرات العربية تخلق أسلوباً جديداً في الحياة. يقظة الرود

- وتقف القلاع جريئة شامخة.
- التأثير في مجالات الدفاع والأسلحة والملابس.
- الشعارات، الرايات، وعلامات القتال.
- الحركات التي تقدم على ظهور الجياد.
- لقد استعبدني الحب.
- فن الحب العربي يصبح فنا رائجًا.
- الكلمات الحلوة.
- "رمز المحبة العربية" الأنوثة الأصيلة تجذبنا إليها.

obeikandl.com

obeikandl.com

التأثيرات العربية تخلق
أسلوباً جديداً في الحياة
يقظة الروح

إذا كان صحيحاً ذلك الذي حاولت الكنيسة أن تجعل الأتقياء يؤمنون به من أن القتال ضد المسلمين بمثابة قضاء الله، ولو كان صحيحاً ما اضطر "ڤالترفون ديرفوجل فايدا" إلى الإيمان به من أن الله سوف يقضي بين المسيحيين واليهود والكفَّار بالحق"، وذلك الرب الذي تعتبر الأرض المقدسة ميراثه، فماذا يعني أن الله قد منح المسلمين النصر النهائي؟ لقد كان ذلك هو التساؤل المهين للغاية الذي أثار منذ وقت مبكر وبكل الحدة المتسمة باليأس نتيجة الهزيمة، أثار الشكاوى والاتهامات والشكوك تجاه القضية العادلة لذلك الصراع. فهناك تساؤل لأحد رجال الدين يقول: ألم يغلب سلام محمدﷺ سلام المسيح؟ وهل أراد المسيح نفسه أن يكون مسلماً؟ كان ذلك تساؤل رجل آخر. وهكذا أخذت الشكوك تتجمع فوق بعضها البعض والتي وصلت حتى إلى ممثلي المسيح في الأرض، و المسؤولين عن ذلك الشقاء والبؤس الذي أصاب مئات الآلاف من المؤمنين الصالحين. ثم أثبت الجاهليون حقاً أنهم هؤلاء الوحوش الذين أرسلت الكنيسة الشعوب المسيحية إلى القتال لمعاقبتهم واعدة إياهم بالسلام ومنذرة بالجحيم، ذلك القتال الذي راح معظمهم ضحيته؟ ثم ألم يكن هؤلاء أيضاً من الأشقياء؟ وكذا ألم يكن "فالتر فايدا ديرفوجل فايد" يرى في نداء ڤولفرام" إلى أبناء الرب بأنهم" إخوة من الأصل نفسه ويخدمون جميعاً رباً واحداً يطعمهم جميعاً بصورة

رائعة؟ أليسوا هم بشراً أيضاً؟ يجدر بالمرء أن يتعلم منهم بعض الأمور؟ لقد حدثت هزة عميقة في الثقة الورعة والطفولية بالبابا والكنيسة تجلّت في صحوة واختفاء للحس الكنسي والشعور بغربة داخلية لقد مدت الكنيسة يديها إليها دون حذر وإن كان من أجل ما تزعم أنه في صالحها ذلك أنها عندما منحت الفروسية الدنيوية والبطولة الدنيوية بركتها كان ذلك يعني أنها أحدثت ثغرة في السد الذي أقامته عالياً، ودافعت عنه بحماس والذي كان من المفروض أن يفصل بين المملكتين الدينية والدنيوية، ولا يقدر إنسان على ارتقائه؟ ثم ألم تكن الكنيسة بذلك قد فتحت حرية التنازلات أمام إغواء الاتجاهات الدنيوية ؟

كان الفارس خلال الحملات الصليبية يعتمد على شجاعته وسيفه كلَّ الاعتماد. وكان ذلك الدافع المحرك له. وقد ترك مسألة الحياة أو الموت لله مباشرة. مما حدابه لأن يتخلى عن وساطة الكنيسة والقساوسة إلى حد بعيد ويصبح أكثر استقلالاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. كما أن اتساع دائرة معلوماته المكانية أسهم في نفس الوقت في اتساع أفقه الفكري المحدود؛ نتيجة للظروف الاجتماعية الضيقة والسلطات المستبدة التي تتحكم به. وهكذا أصبحت الرحلات التي يقوم بها الفارس إلى الشرق تحريراً لحواسه ولروحه وفكره، كما أنها أتاحت للفرسان الصليبيين أن يستمتعوا بأسلوب في الحياة لم يكن في وسعهم أن يحلموا بوجوده والذي أيقظ أحلامهم فجأة. كما أن إشعاع الحياة البهيجة الأكثر جمالاً، وسعادة، قد سقط على إحساساتهم، التي كانت تسيطر عليها القسوة الرهبانية وإذكاء الإحساس الجامح بالخطيئة الذي يكبلهم به رهبان دير "كلونيه"، ذلك الإحساس الذي كان يجعلهم يرفضون بهجة الدنيا، واللذات الحسية، وينظرون إليها بتوجس. كما أن الاحتكاك مع العالم الذي

يعمل ببهجة الوجود، التي تتقبل الحياة وتشعر بلذتها ويتميز بعالم من الألوان الخلابة قد أيقظه الغرب من كوابيسه المتمثلة في الخوف من الخطيئة والأماني التي تركز فقط على الحياة الأخرى وكان من شأن ذلك الاحتكاك أن أوجد لدى الألمان بهجة بكل ما هو جميل كانت في سبات عميق، كما أيقظ ميلهم إلى الاتجاه الرومانسي، وجرأتهم على إنجاز أعمال البطولة، والتطلع إلى بعيد. كما كان من جرّاء ذلك أن انطلقت مكامن إبداعات وجودهم ومقدرتهم التي لم تكن تخطر على البال إلى مرحلة من الانعتاق والتحرر.

وهكذا أخذ عددٌ من الألمان ينزعون الأغلال التي (كبّلت) حياتهم. تلك الحياة التي ضاقت بسبب القيود، والخطر والقهر الخارجي. بدأت الأنظار ترنو إلى الأعلى إلى عالم المستقبل. وأخذت تتكشف الحقيقة الآن وينظر إليها على أنها إلهام من الإله. كانت حياتهم جامدة من قبل، لا معنى لها وليس لها أية ملامح خاصة، والآن بدأت تدب في القوالب الجامدة والأطر الصارمة حياة جديدة.

كما أنَّ تجربة الحرية التي خاضَها فارس الصليب، وفارس الأمبراطورية، التي كانت مرتكزة أساساً على الإيمان بالله وبالقدرات الذاتية، أي على قوة ساعد الفارس، أصبحت تتمتع بقدر جديد من الحيوية والنزوع نحو «الدنيا» التي لم تعد موصومة دائماً بالإدانة، ولم تعد صفة ملازمة للكراهية. اكتسبت الدنيا قيمةً جديدة فيها كثير من السمو، ثم انتقلت لتطالب بأشكال وقيم جديدة، تأخذ طابعها من أخلاقيات الفرسان النبيلة. إذن بدأ الإحساس الذاتي الدنيوي يأخذ أبعاداً أوسع ويتعمّق بشكل مغاير.

ومما لاشك فيه أنه لا يمكن تفسير تكون تلك الفروسية، وروحها، وثقافتها بجذورها الجرمانية وحدها التي تظل حقاً هي الأصل والأساس - كذلك لا يمكن

بتأكيد أكبر تفسيرها بالمصادر المسيحية – الرهبانية التي يبالغ الكثيرون في تقدير قيمتها . فلقد أسهم في نشوء تلك الفروسية مع تلك الثقافة الفرسانية المميزة لشكلها بشكل خاص أسلوب الحياة المنمق، والمتحضر والمتقدم الذي أصبح المرء في الغرب شاهد عيان عليه في إسبانيا العربية، وفي صقلية وفي دول الشرق وذلك إلى جانب الوفاء بالتزامات الإمبراطورية التي تحدثنا عنها في موضع آخر، كما أسهمت بشكل حاسم في المعركة المسلحة، وعلاقات الصداقة على السواء مع الفرسان المسلمين، والإعجاب الظاهر بالفروسية الأجنبية (العربية) المتقدمة والجذابة، والإعجاب الذي لا حد له بأفكار تلك الفروسية المتفتحة وأشكالها المحسنة، وأسلوبها المتحضر في الحياة، واهتمامها بالناحية الاجتماعية والفنون.

كما أن الكثير مما خلب الألباب قبل سبع مئة وتسع مئة عام، وأثرّ على الناس حينذاك وما تم اكتسابه من إشعاعات القصور والمراكز الشعبية، لا يزال الكثير من ذلك يعيش حياً حتى اليوم. وأسهم في تغييرنا بدرجة قوية تجعل من الصعب علينا أن نميز مصدر تلك الإشعاعات. وكان أسلوب حياة المرابطة بشكل خاص، أي طوائف الفرسان المسلحة التي ترابط على الحدود، هو الذي ترك لدينا العديد من التأثيرات.

وتقف القلاع جريئة شامخة

وبينما كان شارلمان يعيش في قصور غير محصّنة كما كانت إمبراطوريته لا تضم أية منشآت دفاعية ماعدا بقايا البنايات الرومانية التي كان يستشعر المرء غربتها والمتاريس الخشبية الأرضية الخاصة بالجرمان الذين كانوا يلجؤون إليها. وبينما كانت الأخطار الناجمة عن هجمات النورمانديين في القرن التاسع تضطر المرء إلى إقامة القصور المحصنة داخل القلاع وإلى تسوير المساكن الحصينة بالدعائم الخشبية والأخاديد المائية أو الحوائط المقامة فوق هضاب صناعية أو مرتفعات جبلية، بدأت أولى الأبنية الحجرية تحل في أواخر القرن العاشر محل المساكن الخشبية. واقتصر ذلك فقط على المقاطعات الملكية والأديرة والكنائس على حين لم تنشأ القلاع بأعداد كبيرة إلا في القرن الثاني عشر كما بدأت ترتفع أبراج الحراسة الحجرية، إلى جانب المساكن التي كانت لا تزال تُبنى من الخشب داخل الأسوار العالية المحيطة بالمكان. خلال تلك الأثناء قامت منذ القرنين السابع والثامن بالفعل مجموعة كثيفة من القلاع الحجرية العربية على طول حدود مملكة الخليفة الهائلة وحول البحر المتوسط . . مئات وآلاف من القلاع التي بنيت كلها حسب خطة واحدة في البناء تختلف عن القلاع البيزنطية وتلائم المتطلبات الخاصة بالهرب وتتشابه فيما بينها كما كانت تتشابه كأوراق الشجرة الواحدة. فقد كان الأساس مربعاً ترتفع فوقه داخل الأسوار الملساء تماماً التي يبلغ سمكها عدة أمتار مبان من ثلاثة أدوار. كان كل منها يضم في البداية أربعة أبراج فقط عند الزوايا، وسرعان ما أضيفت إليها أبراج نصف دائرية على كل من الجوانب الأربعة ولكنها ليست مرتفعة كثيراً، مهمتها تسهيل مراقبة الأسوار فيما بينها جيئة وذهاباً. وكان هناك برج واحد في إحدى الزوايا هو الواقع إلى يمين المدخل، يرتفع أعلى من الأبراج الأخرى ولكنه أقل سماكة.

وهكذا كانت تقف على مدى البصر كنوع من حماية الحدود والشواطىء في مواجهة عمليات الإنزال والغزو. وكانت الأبراج قريبة من بعضها إلى حد أن العين يمكنها أن ترى وميض النار، أو إشارة الراية، من برج لآخر حتى يمكن للحراس القريبين امتطاء صهوة جيادهم سريعاً وأن يصلوا في أقصر وقت ممكن إلى مسرح العمليات.

وكان الحراس يتكونون من خمسين فارساً تقريباً. وكانوا يعيشون حياة بسيطة بعيدة كل البعد عن الرفاهية، داخل غرف مفردة، ليست بها نوافذ، وتطل على الساحة الداخلية. وفي الفترات التي تتخلل المعارك كانوا يذهبون إلى المحراب في قاعات الصلاة والاجتماعات الكبرى إلى تدريباتهم الروحية ويتلقون دروساً في القرآن ويأوون الحجاج العابرين الزوايا الأكبر حجماً - كما يعتنون بالمرضى ، وذلك المكان الذي يصلي فيه الناس ويسمى «المسجد» عبارة عن صالة واسعة يتقاطع فيها مع المحراب قسمان مكونان من عشرة أقواس مترابطة وفي الطابق الأرضي توجد مكتبة وغرف للأسلحة - والتخزين واسطبلات للخيل. أما أماكن جلوس الحراس فإنها توجد في مبنى البوابة الأمامي وفوق برج الإنذار.

ومع مرور القرون أدت عمليات استكمال وتعديل سلسلة الحصون في الشرق والغرب ، مثل رباط المونستير في تونس ، إلى تدميرها أو إلى تعرضها لعوامل التعرية. وتفكك معظم أجزائها أمام ناظري الغرب مباشرة. وكان هارون الرشيد قد عمل على تعزيز حدوده مع بيزنطة من جديد بواسطة تلك القلاع، واستكملها لتصبح ولاية حصينة على الحدود . ولكن المؤرخ البيزنطي الذي عاش في القرن العاشر "ليون ديالونوس" يتحدث عن معارك مدمرة ميؤوس منها

وعن عمليات استيلاء وتدمير لا حصر لها لتلك القلاع، التي يملكها العرب الذين يتباهون بنصرهم الماضي على الرومان أو «الأجاريين» كما يسميهم. وهكذا أصبح على الصليبيين فيما بعد أن يشقوا طريقهم خلال تلك الصفوف التي تهاوت بشدة. حيث عمدوا إلى الاستفادة من بعض تلك الخرائب والبنايات الأساسية في دعم حصونهم الخاصة.

إلا أن قادة حصون العرب الأقوى كثيراً قد كشروا عن أنيابهم، فلقد كانت تلك القلاع تعتبر جديدة حتى بالنسبة إلى البيزنطيين، وبعثت في نفوسهم الرهبة ولم يكن في وسعهم الاستيلاء عليها، فلقد كانت حصونًا هائلة لها أسوار حصينة غير عادية، يصل سمكها من ٣-٥، أمتار مصنوعة من الحجارة المخلوطة بشعر الماعز والخنزير. وكانت من الضخامة بحيث يمكن أن تسير فوقها عربتان إلى جانب بعضهما. كما كانت تحيط بتلك الأسوار خنادق مائية عريضة وعميقة، في وقت ليس بعيداً عن ميلاد السيد المسيح تم بناء قلاع هائلة مماثلة وصل ارتفاعها حتى ارتفاع عشرين طابقاً. وكانت لها أسوار تتوجها الأبراج، ولها نفس القوة. ونقل هذا الطراز قبل التوسع العربي حوالي عام ٥٠٠ إلى سوريا بواسطة الغساسنة، الذين تنصروا هناك، وظلوا بمثابة الشواهد الأولى والنماذج، التي تشير إلى تلك القلاع الصليبية القوية، والتحصينات الهائلة. وكان الفرسان الفرنجة قد كلفوا مهندسيهم بإعادة ترميم أجزاء من تلك القلاع واستكمال بعضها الآخر وفقاً للمثل الصليبي القائل بأن القلعة المدمرة تعتبر نصف مبنية، وذلك على الرغم من أن الغرب لم يكن قد اعتاد بعد على إقامة البنايات الحجرية الضخمة. وأشهر الأمثلة على ذلك هي حصون طائفة الفرسان الراوية (مارجات) وكراك الفرسان والتي كانت تسمى قبل ذلك قلعة الحصن العربية.

وهناك تعلم الصليبيون أيضاً النظام العربي الذي كان غريباً عنهم حتى ذلك الحين، والخاص بالتحصن بالقلاع المزدوجة عن طريق إنشاء ممر بين سورين، أحدهما خارجي، والآخر داخلي، وذلك لتوفير الحماية ضد آلات الحصار ومحاولات تدمير الحصن. ويعتبر ذلك أيضاً أسلوباً في المحاصرة لا يقتصر على العرب وحدهم، كما أن الصوت المتهدج للبيزنطيين ليون وياكوندس ينمُّ عن مدى الرعب الذي شعر به قائد الجيش الذي كانوا يسمونه «الموت الشاحب للعرب»، بسبب فقدان الأمل في الاستيلاء على مثل ذلك الحصن العربي؛ ذلك أن تلك القلاع كانت ترتفع إلى أعلى بصورة لا يمكن وصفها يحيطها سوران. بالإضافة إلى ذلك كان يحيط بها خندق عميق ذو عمق كبير بنيت جدارنه من أحجار بيضاء ملساء. وكان يلامس أسوار الحصن وحين ضخ العرب تياراً جارفاً من المياه إلى ذلك الممر، اضطر القائد إلى التخلي عن محاصرة الحصن وبدأ يهاجم القلاع الأصغر حجماً.

ولقد اقتبس الفرسان من تلك المناطق، وأحياناً من إسبانيا مجموعة من عناصر بناء الحصون العربية - التي تأثرت إلى حد ما أيضا بالحصون البيزنطية - التي كانوا يقاتلون حولها ويستولون عليها ويعيشون فيها ليستخدموها في قلاعهم الخاصة التي بنوها في أوطانهم. وقد فعل ذلك على وجه الخصوص الفرسان الصليبيون الذين شقوا طريقهم وهم متجهون من القسطنطينية براً عبر مناطق الحدود الواسعة إلى فلسطين وسوريا. كما أن بعض المؤثرات العربية الخاصة قد أضفت طابعها بشكل واضح على صورة القلاع الألمانية إلى حد أنها أصبحت ترمز بالنسبة إلينا إلى الحصن ببساطة؛ فهناك مثلاً البروز الحجرية والقلاع وأسوار المدن التي تتوجها كالحلية. وحسب علم شعارات الأسر والمدن الشعارات تعتبر

الأبراج البارزة والأسوار رموزاً تدل على الحصن وعلى المدينة الألمانية، ولكنها كانت في الأصل أكثر من مجرد حلية للتزيين. ولقد استطاعت المخيلة الفنية في الدول العربية أن تخلق قدراً لا ينضب (حتى بالنسبة إلى البنايات الدفاعية) من الأشكال التي تستخدم في التنميق. وفي الوقت نفسه تفي إلى أقصى حد بالمتطلبات العسكرية العملية. وسواء كانت تلك البروز التي، تكاد تقارب هامة الرجل على شكل ذيل العصفور أو مسننة ثلاثياً، أو على هيئة سلالم، أو مستديرة كالقوس، أو ملفوفة في هيئة أرابيسك، فإنها كانت تستخدم في الجنوب العربي كدرع يحمي الجندي ، يمكنه من إطلاق وابل سهامه على المهاجمين.

وتمثل الحصون العربية المربعة بأبراجها، وأسوارها السميكة والمنيعة، فكرة دفاعية جديدة للغاية، وصلت إلى ألمانيا. وهي فكرة جديدة بالمقارنة بالقلاع الدائرية القديمة. التي تحيط بالبرج الموجود في وسطها. ذلك أن الأبراج التي في الزوايا وعلى الجوانب في الحصون العربية تتيح إمكانية المراقبة التامة، بالإضافة إلى كشف الجوانب تماماً، والدفاع مباشرة في كافة الاتجاهات، على البرج الذي يوجد في وسط القلعة. ويعتبر حصن سوسة في تونس، وهو حصن يأخذ الشكل المربع تماماً، مثالاً حياً اليوم على تلك الحصون «الرباط» . كما أن ذلك الشكل لا يزال باقياً في الحصن الواسع من «مونستير» الذي بقيت بعض أجزائه فقط ولكن يمكننا أن نميزه من بنائه كما أننا نجد الشكل نفسه في بقايا حصن " حمط سوق " في جربا وبخلاف البروزات الحجرية وأبراج الأسوار فإن حصن سوسه الذي تم بناؤه عام ٧٨٧م ويعتبر من أقدم بناء دفاعي عربي في شمال إفريقيا مايزال باقياً حتى الآن، فإن هذا الحصن يضم تجهيزات دفاعية بدأنا نستخدمها في قلاعنا بعد ذلك بعدة قرون، كما أن الفتحات التي تخترق السور الأملس من

ناحية البوابة وحدها عبارة عن ست فتحات تطلق منها العيارات النارية. وعلى الرغم من أن عرضها ٨ سم تقريباً وارتفاعها ٨٠ سم إلا إن السور يمتد خلفها في زاوية عريضة إلى الداخل بدرجة تتيح لرامي السهام مكانا كافياً للحركة بحيث يغطي بسهامه المهاجمين عند البوابة الأمامية. ومما يتعارض مع الاعتقاد بأن تلك الفتحات مجرد فتحات لدخول الضوء فإن قاعة الصلاه المنبسطة ينفذ إليها قدر كاف من الضوء من خلال الأبواب الأربعة، وأنه ليس هناك أي مسجد به نوافذ في اتّجاه المحرابّ.

وهناك إنجاز عربي آخر أخذه الغرب يتركز في أكثر مواضع الحصن حساسية وذلك هو البوابة فلقد رَصّت أعلى المداخل برقائق حجرية على مسافات متقاربة يستطيع المدافع من خلال الفتحات التي بينها أن يصب فوق رأس الذي يتمكن من الاقتراب من ذلك الموقع، زيتاً ساخناً وقطراناً وكان ذلك يتم وفقاً للمبدأ نفسه المتبع في قوالب الصّب العربية القديمة، وأنابيب القطران في القلاع الألمانية التي تسمى "Machiculis". ولكن قبل ذلك الاستقبال الساخن مباشرة كانت تنتظر المهاجم عقبة أخرى. فقد كانت هناك رافعة يجري حلّها بسرعة فتسقط شبكة حديدية مزودة بأسنان مدببة تسد الطريق نحو المداخل كانت تدعى في إيطاليا "Sarracinesca" وبالإضافة إلى كل ذلك يوجد في حصن جربا مدخل البوابة المنصوب بزاوية يعوّق تدفق مجموعة المحاصرين.

إن فكرة البناء القائمة على إنشاء برج مربع على السور والتي كانت تلبي بصورة تامة. حاجة العرب إلى وجود التناسق والتناغم، وإلى تنظيم وبالتالي الحد من كثرة الأشكال وتنافرها، إن تلك الفكرة قد لاقت استحساناً في الغرب لدى صديق العرب الكبير، القيصر فريدريك الثاني. كما كانت تتفق مع إحساسه

بالسلطة، والالتزام الصارم بالنظام. وكان فريدريك الثاني عرف منذ شبابه تلك القلاع البسيطة الضخمة التي أقامها المهاجرون العرب من تونس التي كان يحكمها الأغالبة منذ غزو صقلية حوال عام ٨٢٧م، ولذلك فإنه قبل أن يبدأ حملته الصليبية عمل على ترميم أجزائها المتداعية وتوسيعها، بإضافة أبراج عند الزوايا الأربعة للبناء يغطي أبوليا وصقلية بشبكة كثيفة من القلاع الرسمية ذات التأثير المهيب، التي تمثل قوة القيصر ورجاله، وقد اعتمد في بنائها لحد ما على الفكرة العربية وأكثر ما يتضح ذلك في قلعة أورسينو في كاتنيا ومانياسا في سيراكوزا، أو بصورة مشابهة لهذه الحالة مع ما جرى عليها من تعديل طفيف مثل قلاع تراني، باريوباريتا، ووبريندیزي، ومانفريدونيا، وتارينت الواقعة معها على البحر. وهنا يستخدم القيصر أيضاً القاعدة العربية التي من شأنها أن تعوق المهاجمين الذين يستخدمون معدات الحصار، وذلك بحفر الخنادق العميقة. كذلك أخذت طائفة الفرسان الألمانية – التي ترتبط بالقيصر بصلات وثيقة – استقت من سوريا وفلسطين فكرة البناء العربية ونفذتها (كأسلوب للبناء) بشكل فريد ومتميز في قلاعها مثل ميقبة، ورميسهدن، هيلسبرج وأرنسبورج، وقد مزجت الطائفة تلك القلاع بالأقواس المدببة أيضاً. مثل تلك التي تزين منذ أيام هارون الرشيد خزانات المطر. بالقرب من يافا، شمال غربي القدس. أضيفت إلى ذلك في ألمانيا في القرن الثالث عشر بصفة خاصة الأشكال نفسها المميّزة للقلعة ذات الزوايا الأربعة التي تتحكم بها الأبراج المقامة عند الزوايا ونقصد بها قلاع هاردبنبورة، وهرتزبرج، وفريد يفالد في ولاية هيسن، وفرستناو في غابة أودن (Odenwald)، وليشينش في راينلاند وتسيلبيش في ڤستڤاليا. كما أن قلعة قاسرنوا مارشلينز في جراوبيندن تشير إلى وجود صلة مباشرة بينها وبين

قلاع فريديك الثاني. كما أن ذلك الطراز الخاص بالقلاع العربية الرباعي الزوايا شائع في سويسرا كذلك. وهناك القلاع المربعة القوية التي ترتفع على بحيرة نوينبورجر مثل سامبڤنت، وجراندسون التي تحيط بها عند الأركان أبراج مستديرة وكان اثنان من أبناء صاحب القلعة: وإيبال، إميبال الرابع فون جراندسون، قد قاما ببناء هاتين القلعتين أو بالأحرى أجريا تعديلات عليها وفقاً للطراز العربي وذلك بعد أن عادا من الحروب الصليبية في فلسطين حيث كانت القلاع الدفاعية من ذلك الطراز منتشرة انتشاراً واسعاً. كذلك كان بيتر الثاني فون سافوسين يهوى ذلك الطراز العربي المؤثر في بناء القلاع وقد قام بتقليده يفرادون، وغيرها من القلاع المربعة الشكل، ولذلك سميت «مربع سافوسين».

إن قلعة شامبڤنت الشامخة احتفظت في شكلها الأصلي بالنموذج العربي، خاصة فيما يتعلق بفتحات النبال ومكان إلقاء القطران فوق بوابة المدخل.

التأثير في مجالات الدفاع والأسلحة والملابس

من الطبيعي ألا تقتصر الجهود في مجال الشؤون الحربية على البنايات الدفاعية وحدها. إذ كيف يمكن ألا يؤدي أي اتصال بالعدو - كما حدث في كافة العصور - إلى حدوث توازن في القوى خلال وقت قصير ومحاولة التكيف مع العدو المتفوق في المعدات والأسلحة والتكتيك. وكما كانت الحرب الأهلية الإسبانية في القرن العشرين مسرحاً لتجارب القوات الألمانية ولسلاحها الجوي وصناعة طائراتها ، كذلك قامت الحروب الصيلبية الإسبانية في القرنين العاشر والحادي عشر ضد الموريسك (عرب الأندلس) بالدور نفسه بالنسبة إلى جماعات الفرسان من كافة الدول الأوروبية. فلقد كانت تلك الحروب تعني حدوث مواجهة مع التجهيزات الحربية للعرب الذين اعتادوا القتال وأصبحوا من ثم بفضل الالتزام الديني على أهبة الاستعداد الدائم لخوضه، وكما كانوا على دراية كافية بأحدث الإنجازات في صناعتهم الحربية المتطورة وأصبحوا بذلك يتدربون ويتعلمون باستمرار الفروسية الغربية الناشئة.

إلا أن تلك كانت أشبه بنزهات فردية بالمقارنة بالأعداد الضخمة التي أتاحت لها الحروب الصليبية المشاركة فيها وكذلك قياساً بالتفوق العددي لمن يدافعون عن وطنهم ضد الغزاة والمستعمرين. وكان على هؤلاء أن يدركوا سريعاً أنه لا بد أن يحدث تباين واضح في التكتيك القتالي والتكتيك الحربي الناشئ عن تصادم جيوش الشرق والغرب.

ذلك أن الفارس من الفرنجة بمعداته الحربية المكونة من السيف والرمح والدرع كان مهيئاً بصورة أساسية لخوض المواجهة الفردية عن قرب مع محاربين - كأفراد- وسط جماعات غير منتظمة في حين أن العرب والأتراك كانوا مُهيئين

لخوض المعارك عن بعد من فوق جيادهم السريعة بصفتهم رماة سهام مهرة على ظهور الخيل من خلال وحدات قوية منظمة تكتيكياً. وكانوا يمثلون منذ وقت بعيد العمود الفقري للجيوش العربية التي يعملون لديها أشبه بالمرتزقة الأجانب، فقد كانوا يوجهون سهامهم نحو العدو من على بعد ثمانين متراً، وكان ذلك السيل الكثيف المنهمر من السهام، التكتيك السريع للغاية للمهاجم الذي ينطلق ثم يفرّ تمويهًا ثم يعيد الكرّ من جديد على حين غرة كل ذلك كان يؤدي إلى إصابة الفرسان الصليبيين بالحيرة والإرباك إلى حد جعلهم يقفون في البداية شبه مشلولين في مواجهتهم وأحياناً كانوا يلجؤون إلى الفرار. ويصف ڤيلهلم فون تيروس الأثر المدمر لتلك الهجمات بقوله: "كانت هناك سحب من السهام مثل أسراب الجراد كثيفة إلى حد أنه لا الأمطار ولا البرد كان من شأنهما أن يسببا قدراً أكبر من الظلمة كانت السهام تخترق أجسام الكثيرين منا، وحين أفرغ المهاجمون من الصفوف الأولى ما في جعبتهم، جاء بعدهم السرب الثاني الذي كان يضم عدداً أكبر من الفرسان وبدأ في إطلاق سهامه بصورة أكثر كثافة إلى درجة يصعب تصورها وكان ذلك الأسلوب في القتال غريباً تماماً بالنسبة إلى مقاتلينا. كما لم يكن في وسعهم الصمود أمامه دون أن يتأثروا وهم يرون جيادهم تتساقط كل دقيقة دون أن يستطيعوا القيام بأي شيء لإنقاذها دون أن يكون بمقدورهم الدفاع عنها. وأما هم فكانت يتعرضون لإصابات غالباً ما تنتهي بموتهم من غير أن يستطيعوا النجاة. ولم يكن أمامهم سوى الانقضاض عليهم بالسيوف والرماح. ولكن لم يكونوا يستطيعون الصمود أمام هذا النوع من الهجوم، لذا كانوا ينسحبون مما يضطر جنودنا إلى الإنسحاب. أما أولئك الذين أصيبوا بجراح مميتة غالباً ما كان يصعب عليهم النجاة ولذلك فإنهم كانوا

ينسحبون على الفور . . . لأن جنودنا لم يجدوا أمامهم بعد ذلك أي شخص ، فإنهم اضطروا إلى الهجوم عليهم مستخدمين السيوف والرماح ، ولأنهم لم يستطيعوا من ناحيتهم احتمال هذه النوعية من القتال ، فإنهم انسحبوا على الفور وعندما لم يجد جنودنا أحداً أمامهم اضطروا إلى الاستدارة للانسحاب ، ولكن بينما هم يتراجعون إذ بالأتراك ينظمون صفوفهم سريعاً ويبدؤون في إطلاق سهامهم من جديد التي كانت تنهمر كالمطر فوق صفوفنا ولا تكاد تترك أحداً دون أن تصيبه . "

لقد كانت تلك مدرسةً مرعبة ، وذلك أن القتال عن قرب وعن بعد كانا يخضعان في الهجوم والدفاع لقوانين متباينة ، ولقد اتضح أن القمصان المدرعة البسيطة والواسعة الثقوب أو "الدرع» لا تصلح على الإطلاق في مواجهة تلك السهام القاتلة ، على حين أن الدروع العربية المصنوعة على هيئة السلاسل كانت بها دائماً أربع حلقات تربطها خامسة الأمر الذي كان يتيح قدراً أكبر من الحماية ويدعمها قميص أسفل الدرع مبطن بالقطن .

وحتى الحرب الصليبية الثالثة ظل الأوربيون يتعلمون في تلك المدرسة القتالية . ويحكي أحد شهود العيان من العرب عن معركة عكا فيقول : «لقد أصبح الفرسان الصليبيون يرتدون الآن سترة سميكة ودروعًا محكمة واسعة قوية تحميهم من سهام الأتراك ورأيت جنوداً انغرزت في أجسامهم سهامٌ بلغ عددها واحداً وعشرين سهماً . "

ومما يدهشنا وجود بعض أجزاء المعدات العربية حتى اليوم في الملابس المدنية التركية التي لا تزال تستخدم حتى اليوم . ولقد اشتق من القميص القطني المبطنْ الذي كان يلبس أسفل الدرع ، اشتق منذ عام ١٢٠٠ تعبير بامبك عن الفارسية

الوسطى أي القطن الفارسي، كلمة «وامبوس» أو ڤامس «Wams» واشتق عن نفس الأصل اسم المادة القطنية بومبازين "Bombasin" . ولأن الإنسان كان يستخدم القطن في تبطين القميص، جاءت أيضا كلمات بومباست والصفة منها، بل واسم الجنس تومباسب، الذي أطلق على باراسيليوس فون هوناهايم كما اشتق عن الكلمة العربية "شك» Sakk أي القميص المدرع. وعبر الكلمة الإسبانية «باكو» كمتي (باكت ، جاكت) وجاكت وخرجت عنها فيما بعد كلمة «ساكو» التي يبدو أنها إيطالية.

وأجبرت تلك الخبرات المكتسبة في الشرق المرء على اتخاذ إجراءات مضادة أخرى. فلقد أصبح من الضروري بشكل خاص تغطية الرقبة الأمر الذي أدى إلى ظهور الغطاء الثقيل للرقبة. كما أن بقية معدات المحارب أصبحت أكثر ثقلاً وكثافة. وأما الخوذة الصغيرة البيضاوية الشكل التي توفر حماية للرأس فقد تركت فتحة صغيرة للعينين. وعلى هذا فإن فرسان العرب الذين كانوا مدرعين بشكل مرن من قمة الرأس إلى أخمص القدم كانوا مثالاً يحتذى في توفير حماية شاملة أيضاً للأيدي والأذرع والأرجل إلا أن إحلال الدرع الحديدي الباهظ الثمن محل الدرع الذي كان على شكل سلاسل، جعل القليلين فقط قادرين على اقتنائه. ونفس الشيء حدث بالنسبة إلى حماية العرب لجيادهم. على الرغم من أن الفارس الذي بدأت تثقل أسلحته يتزايد باستمرار نتيجة للسيوف التي أصبحت أكثر طولاً والرمح الحديدي والدرع الكبير الطويل غير المريح للجياد، كان لا يجارى أثناء قيامه بهجوم الجرْي، إلا أن حركته ازدادت ثقلاً باستمرار تحت وطأة ذلك الحمل الثقيل إلى الحد الذي جعله يحتاج إلى عدد من العبيد يساعدونه في امتطاء صهوة جواده والنزول عنه. لقد ظلّ المقاتل هو نفسه المهيأ

على القتال القريب وعلى الهجوم والمعتمد أصلاً على مهاراته الذاتية.

ولذلك ظهرت الحاجة إلى تكوين تشكيلات جديدة تماماً من الجيوش لكي تستطيع مواجهة جيوش المسلمين. انقسمت تشكيلات الفرسان ذوي الأسلحة الثقيلة على غرار تشكيلات الفرسان العرب الذين أثبتوا جدارتهم في المنازلة في ساحات الوغى الواسعة وفي استخدامهم الرمح والبلطة، ثم هناك تشكيل الفرسان المتفوقة عدداً، وتشمل رماة النبال، الذين يتسمون بالنشاط وبحرية الحركة والسرعة، ويتم زجّهم عند اتخاذ القرارات المفاجئة في المعركة ثم هناك المشاة التي تضم رماة النبال والمدفعية ورماة المنجنيق الذين يرتدون زياً مقاوماً للنيران. وأخيراً المهندسين ولم يكن هناك أهم من فرقة الفرسان الرماة التي تم تشكيلها من المخلصين والوطنيين الذين يطلق عليهم لفظ «التركو بولن" الذين كانوا يصلحون بصفة خاصة للقيام بالهجمات المفاجئة القوية ولأعمال التجسس والاستطلاع وكان أكثر من استخدمهم هم طوائف الفرسان كما أن طائفة الفرسان الألمان استخدمتهم أيضاً. وإن كان النورمانديون الذين جابوا العالم يملكون داخل جيشهم وحدات لرماة النبال حسبما يظهره بساط «بايوه» الذي نُسج عام ١٠٩٠ وهو الجيش الذي غزوا به إنجلترا عام ١٠٦٦، ويوضح البساط الجنود النورمانديين والأنجلومالونيين وهم يرتدون زياً يشتمل على خوذة مدببة ورداء مدرع على شكل سلاسل، وذلك مثلما فعل الخليفة المتوكل قبل ذلك في منتصف القرن التاسع حين أمر بتوحيد السلاح والزي "للجند" المؤلّفين من العبيد والأتراك أو التركمان المكونين للفرسان والمشاة.

ويستكمل سلاح الفرسان بواسطة فرسان خيّالة ذوي تسليح بسيط مزدوين بالرماح أو الأقواس القاذفة وذلك لمساعدة القوات، ويذكر (نولخر فون

كارترس) أن الفرنجة كانوا غير متمرسين في استخدام الأقواس القاذفة. وعلى الرغم من أن السيادة ظلت للفرسان ذوي التسليح الثقيل، إلا أنهم كانوا يعتمدون على رماة النبال. وهكذا عندما كان المرء يأخذ بأساليب القتال العربية، حيث يبدأ الرماة المعركة، من أجل إفساح المجال أمام الفرسان عن طريق التفريق أو الانسحاب من جانب جموع الزاحفين. أو عندما يتبعون أسلوب "القنفذ" العربي الذي يتمثل في الدفاع ضد قوة أكبر حيث يقف المشاة في دائرة محكمة الإغلاق وهم جاثون راكعون على ركبهم ويثبتون الدروع أمامهم في الأرض. ويقف في ظهرهم رماة النبال والفرسان حيث يتلقّون العدو بالرماح المقذوفة.

ومن أجل توفير الحماية من الشمس السورية القوية والتي تزيد الدروع الحديدية من لهيبها بصورة غير محتملة، عمد المرء إلى التقليد العربي المتمثل في نشر عباءة خفيفة على أجسادهم وتغطية الخوذة بالكوفية العربية وكذلك حماية الجياد بواسطة أغطية خفيفة رقيقة بحيث لا يبدو من رؤوسها سوى الأعين وكانت معرفة تلك التأثيرات من جانب العدو الوثني هو الذي دفع باب كليرفو إلى تحذير الفرسان الصليبيين قائلاً: إنكم تزينون الجياد بالأزياء الحريرية وتغطون أسلحتكم بأغطية هفافة" وحذر من أن زينة الفرسان تلك تليق بصورة أفضل بالعاهرات.

الشعارات ، الرايات ، وعلامات القتال

ولكن الأمر تعدى ذلك لأن المرء سرعان ما بدأ يكتسب وبسعادة تحيطه تلك العادة العربية والتي بدونها لا يمكن مطلقاً تحديد هوية الفارس أثناء العراك وقد أصبح الآن مغطى تماماً. تلك العادة هي تطريز القميص والغلالة التي فوقه بشعار الفارس. وهكذا بدأت أشكال الحيوانات الشرقية والشعارات تظهر فجأة حوالي منتصف القرن الثاني عشر على الدروع والقمصان وأغطية الجياد والرايات التي يحملها الفرسان المسيحيون. كما تظهرها لنا قصائد ما نسجه المصور على كل جانب. وهذا هو السبب في أن الشعار حتى اليوم يأخذ شكل الدرع العربي الصغير الذي يمكن استخدامه بسهولة والذي يسمى تارتشة عن الاسم العربي «دركة» وذلك عوضاً عن الدرع الطويل الضخم الذي كان يستخدم فيما مضى ولم يعد له استخدام في ذلك الوقت. ولذلك أيضاً فإن الخوذة وما يزينها أخذت مكانها في شعاراتنا العائلية على حافة الدرع، تلك الزينة التي كانت ترفرف على أغطية الخوذات التي أخذت عن غطاء الرأس العربي ، أو ما يطلق عليه «كوفية» البدوي العربي.

وسرعان ما أخذت الأسود التي يرسمها العربي، والنسور تبرز فوق الأختام والعملات والرايات ، وفوق الحصون وعلى أسوار المدن. ومع منتصف القرن الثاني عشر بدأ سيل من الشعارات الرسمية العامة يجتاح ألمانيا. وتقليداً للنموذج العربي أخذ القيصر شعار ذلك الطائر الغريب الذي ظهر بالفعل على آثار السومريين والحثيين رافعاً رأسيه معاً : ذلك هو النسر ذو الرأسين. كما أن العملات العربية كانت تحمل صورته. ومع بداية القرن الثاني عشر بدأ السلاطين السلاجقة أيضاً يستخدمونه في شعاراتهم . وعلى حين فجأة بدأ هذا الشعار

يحتّلُ مكانه بقوة ليصبح شعاراً للإمبراطورية رمزاً إلى سيادة الإمبراطورية الألمانية والمدن الأخرى المستقلة التابعة لها (Vichsfreie)، وللمملكة النمساوية وروسيا القيصرية. ولكن، هل ظهر على الأعلام أيضاً؟ فلنحاول أن نتذكر: حين قام الباباوات لأول مرة بمنح ما يسمى "بأعلام القديس بيتر"، استجابوا لطلبات المحاربين الملحّة، الذين عادوا لتوهم من المعارك مع المسلمين في إسبانيا وجنوب إيطاليا أو الذين كانوا على وشك الالتحاق بتلك المعارك. ويرجع ذلك إلى أن الشرق كان يعرف بالفعل أعلام القبائل والحروب منذ العصور القديمة المبكرة، ومع بداية العصر الإسلامي بدأ النبي ﷺ والخلفاء الراشدون. وكان هؤلاء يرفعون راية النبي ﷺ الخضراء - التي تحتفظ بها (القسطنطينية)[1] الآن كأثر له - وحملوها عبر نهر مش متوغلين في بلاد ما وراء النهرين حتى وصلوا إلى فرنسا. وهناك شيء آخر كان غير الشعور العربي المتدفق فيما يتعلق بنشأة الرايات في الغرب: ذلك أنه خلافاً لما هو معمول به بالنسبة إلى الرايات المقدسة التي كانت بيزنطة تمتلكها قبل روما بمائة عام والتي كان يتم عقدها عند بداية المعركة حتى لا تسقط فإنه كانت هناك على عهد محمد ﷺ عادة عربية تتمثل بعقد الراية قبل الحرب أو المعركة في سن الرمح، وقد ظهرت هذه العادة نفسها في القرن الحادي عشر عندما تم منح الرايات المقدسة لأول مرة، كذلك تحمس الفرسان للأخذ بهذه العادة، وهكذا أخذت تلك الرايات الصغيرة الطولية والمشقوقة والمزدانة بالزينات وفقاً للنموذج العربي، ترفرف على رماح المحاربين الممثلين لمختلف التشكيلات والأقسام وعلى المئات من الشعارات والرايات

(١) استامبول الآن . المترجم

الصغيرة. وكانت شعارات الرماح تلك هي التي تميز حاملها عن بُعد، وكان قائد الجيش الآن يتقدم حاملاً الشارة ويقوم بنصبها فوق السور أو البرج معلناً بذلك استيلاءه على الحصن، تماماً كما يفعل اليوم رواد الفضاء فوق القمر ، أو يقوم بإنزال الراية دليلاً على هزيمته.

وعندما بدأ زيجفريد في ملحمة «النيبلونجن - الشهيرة» قتاله مع قبائل البورجونديين ضد الساكسون أنشد يقول :

طلبنا من البوجوند أن يعقدوا رايتهم
فأمسك المحارب الشجاع بالراية
وحمل سلاحه وسار على رأس الجماعة

وحين قام محارب مدرع مجهول بكسر درع ملك الساكسون ليديجر فقد كان شعاره الذي هو نمّ عنه :

ورأى الملك ليديجر على أحد الدورع
تاجاً مرسوماً أمام ساعد زيجفريد

وبدون درع أصبح ملك الساكسون غير قادر على مواجهة زيجفريد الذي لا يقهر ، ومن ثم طلب من جيشه أن يكف عن القتال :

طلب خفض الرايات في المعركة . . . لأنه ينشد السلام.

ومن الأمور المميزة لروح الفرسان المسلمين ، تلك اللفتة التي قام بها السلطان الأشرف عند استعادة مدينة عكا. فلقد أرسل راية إلى فرسان المعبد

والفرسان الألمان الذين استسلموا، وكان عليهم أن ينصبوا هذه الراية على معبدهم بغرض حمايتهم من أي ضرر يصيبهم أو يودي بحياتهم، إلا أن بعض الذين أعماهم الغضب قاموا بأعمال النهب ولم يتوقفوا عند البرج، فقام فرسان حفظ النظام بتأديبهم.

وإذا كان الألمان ينشدون بين الحين والآخر أناشيدهم الحربية التي اعتادت الجيوش في الأزمان الغابرة على ترديدها وهي في طريقها إلى المعركة وفي حين يطلق الفرنسيون صيحات الحرب، نجد أنه كان من عادة العرب أن يقوم بعض الشعراء باستثارة حماسة المسافرين إلى المعركة بأناشيدهم الحربية، ولقد كانت هناك على وجه الخصوص عادة عربية أصبحت مثالاً يحتذى لدى الألمان، كما أنها أصبحت تمارس بواسطة من يمارسون الألعاب من العبيد بين الأتراك والألمان، ثم بواسطة جماعات الموسيقيين فيما بعد؛ ذلك أن الموسيقيين اعتادوا أن يتقدموا المحاربين العرب في معاركهم الحربية. وهكذا نافخو الأبواق الصغيرة والكبيرة، وعازفو الميزامير.

وبالإضافة إلى ذلك كان ضاربو الطبول يقرعون طبولهم، وكثيراً ما كانت النساء وهن يمتطين سنام الجمال يقرعن الطبول ويضربن الصاجات وكان الصبية ينفخون بالمزمار ويقرعون الطبول، ولقد كانت موسيقى الميدان العربية هذه جزءاً أساسياً من التكتيك العسكري. ولقد كان مراسلو الحروب الصليبية يصفون استخدام تلك الموسيقى والتأثير الذي يصم الآذان والذي كان من الصعوبة التغلب عليه في بادئ الأمر: عندما كانت الطبول الكبيرة تقرع قبل انبلاج الصبح بصوت عال جداً ويهاجم العرب عند سماع تلك الطبول ذات الصوت المرعب الهائل.

ولقد بدأ الفرسان الصليبيون يعتادون بصعوبة بالغة على موسيقى الميدان تلك التي تعلن عن بدء المعارك كتب أحد رفاق السلاح لصلاح الدين تقريراً قصيراً ووافيا واصفاً الجو المشحون الذي يسبق هجوماً عربياً : "اعتاد المسلمون مهاجمة الجيش المسيحي من ثلاث جهات ، من الشرق والشمال والجنوب . وكانت جهة البحر هي وحدها تبقى خالية وفي تلك الأحوال كنت أرى السلطان وهو يتنقل بين الجيشين في خضم سيل منهمر من السهام وليس معه سوى صبي أو اثنين إلى جانبه، متنقلاً بجواده بين تشكيل وآخر . ولقد رأيته وهو يثير حمية محاربيه ويشعل فيهم الرغبة في القتال . كما كان الجو مشحوناً بصخب الطبول والمزامير وصيحات الجنود الذين يزداد حماسهم مع صيحات «الله أكبر - الله أكبر» ، وعلى الرغم من ذلك احتفظ الجيش المسيحي بتشكيله . "

كذلك سرعان ما تعلم الفرسان الصيليبيون طريقة العرب في التفاهم بواسطة إشارات الطبول ودقات الطمبور ، وضجيج الطبول وكذلك إشارات الرايات ، كما فعل صلاح الدين مع سكان عكا المحاصرين ، الذين استخدموها بدَوْرهم ، وكما أخذوا عن العرب تزيين المباني أثناء احتفالهم بأعيادهم وانتصاراتهم .

الحركات التي تقدم على ظهور الجياد

نشأ العربي جنباً إلى جنب مع جواده ، إلى جانب هذا كان يتصف بحبه الشديد للهو فهو يهوى منذ نعومة أظفاره ألعاب الفروسية بكافة أشكالها . فكان يخوض سباقات الخيل فوق مضمار بيضاوي طوله عشرة كيلومترات ، ويعقد المراهنات عليها . كما يمارس ألعاب قذف الكرة وهو على جواده ، وهي اللعبة التي أخذها عنهم الإنجليز وأسموها البولو ، أو هوكي الخيل . وكان العرب يقومون بتلك الألعاب على عهد الخلفاء الراشدين في بغداد وفي مقر الخلافة في

سامراء، وكانت لعبة «الجريد» من أفضل الألعاب. الرياضية المحببة إليهم، وهي عبارة عن قتال ثنائي بين فرسان يلبسون الدروع. وتقتصر ممارستها على الأمراء والملوك. ويسعى كل فارس إلى إلقاء الآخر عن سرجه بواسطة رمحه، الذي كان إما مغطى أو بدون نصل معدني. وكانت كل مدينة عربية بها واحدة أو أكثر من ساحات السباق المخصصة لهذا الغرض. وكان الناس يتدفقون إليها ويشاركون فيها بحماس. وفي الأندلس العربية كانت ألعاب الفروسية تتم غالباً في قصور الأمراء، وكانت النساء تجلسن في الحلبة أو في أماكن مخصصة للمشاهدين حول ساحة القتال المحاطة بالحواجز في حين يصارع الفرسان بعضهم بعضا وفق قواعد محددة، وهم يربطون وشاح محبوباتهم فوق الخوذة أو معطف القتال الأحمر أو الأزرق المزدان بالشعار ويغطى الدرع أو يربطونه على الرمح.

ومن هذا النموذج من فروسية الجريد أخذ الفرسان الفرنسيون، ومن بعدهم في القرن الثاني عشر أخذه الفرسان الألمان - الذين مارسوا منذ وقت طويل لعبة البوهرت وهي عبارة عن قتال شكلي بين مجموعتين من الفرسان، أخذوا عادة القتال عن المحاربين. وكانت بالرماح سواء ذات نصل حاد أم غير حاد، إلا أن ذلك لم يكن مجرد ألعاب، ففي عام ١٢٤١ أسفرت إحدى هذه المعارك عن ستين فارساً قتيلاً في ساحة القتال في نويس على نهر الراين. وتجدر الإشارة هنا إلى تركيب لغوي طريف من فترة انهيار ألعاب الفروسية وهو تعبير يرتبط بكلمة غير واضحة الأصل، ربما تكون شرقية، وذلك أنه عندما كانت سعادة المشاهدين تبلغ مداها وهم يشاهدون مثل تلك المسابقات ويزداد هذا الضجيج الذي يحدثونه كان المرء يطلق على ذلك لفظ جرالين أو جرولين استعارة من أسطورة : الجرال[1]

(١) الجرال: في شعر العصور الوسطى عبارة عن حجر كريم لا يراه إلا من كان صاحب رسالة.

إن ملحمة "النيبلونجن" المليئة بشكل خاص بالحديث عن إجراء المسابقات تقول : فإنه تم منع البوهرت والضوضاء تماما، على الرغم من ذلك فإنه عندما كان الضيوف والأصدقاء يلتقون معاً للتسلية كانت الفتيات الجميلات يقفن خلف النوافذ وكان المرء يسمع تكسير النصال على السيوف التي تحملها الأيدي كما أن ضربات السيف تحدث صليلاً على الدروع، ولقد تكسرت أمام النساء بعض النصال القوية لأنه وفقاً لقتال البلاط كانت النساء يستمتعن بوقتهن وهن ينظرن إلى الفرسان، وكان الفارس المنتصر يتلقى وهو جاث على ركبتيه حسب التقاليد العربية الشكر من أيدي السيدة التي خاض المعركة على شرفها. وهكذا شهدت بلاد ألمانيا ازدهار آداب الفروسية على أرضها ولقد أخذ اللفظ أيضاً عن اللغة وطريقة التفكير العربية ، إذ يسمى الشهامة.

لقد استعبدني الحب

يجب علينا أن نستعيد ذلك الخلاف الصارخ لأذهاننا ذلك أن المرأة التي تخضع وفقا للتربية المسيحية، والتقاليد المفروضة، لأنها بنت حواء العاصية لزوجها في المنزل روحاً وإرادة وجسداً ، تلتزم بطاعته بصفتها خادمة توجيهاته الخاصة في المنزل والمطبخ والفراش. هي نفسها التي تبدو في البلاط في صورة السيدة الرفيعة الشأن التي يخطب المرء ودها والتي تتقبل ما يؤديه نحوها من خدمات. وأعمال فارس خاضع لإرادتها، والذي هو بالصدفة يسمى زوجها، وتمنحه حبها وتكافئه برضاها عنه. كذلك فإن الرجل نفسه الذي يظهر هناك كرب بيت، وحامي زوجته، ومربيها ويجعل جسدها يزرقّ من الضرب كما فعل زيجفريد النبيل ، طالما أنها لا تنفذ رغبته في كل شيء، فإنه ينحني على ركبته أمام زوجته الأخرى ويطلب حظوتها عن طريق وضع نفسه تحت إرادتها تماماً ويخوض المعارك والمغامرات على شرفها.

يا له من تجديد بالغ الغرابة ! ذلك الأمر الذي كان يعد تقليداً جديداً (صرعة)، لا يمكن تصور حدوثه من الفارس الشجاع، الذي صورته ملحمة رولاند أو من محارب العصر الكارولينجي وعهد الملك أوتو وهي الصرعة التي طغت فجأة على تصرفات الفروسية في الغرب وكان من نتيجته الخضوع لفكر معين تجاه العالم، وهي الصرعة التي تختص بسيدة ذات مكانة رفيعة - وليست فتاة صغيرة - ولكنها زوجة لشخص آخر ، فيتقدم الفارس طالباً رضاها لأنه اتخذ لنفسه أشق المهن؛ ولأن الحروب والمعارك والقتل هي محور حياته. ولقد كانت تلك التقاليد أيضاً موروثة عن العرب ونشأت عن فكر عربي خالص، وهو فكر وقف على طرف نقيض من فكر عالم آخر في الغرب المسيحي وألمانيا

المسيحية واعتنقته بنفس الشخص المسيحي رغم تناقضه.

إذ ما هو فن الحب العربي ذاك الذي انتاب مقاطعة البروتانس أولاً ثم فرنسا وألمانيا؟

إن بادرة ثني الركبة أمام السيدة، المسلك الخارجي والداخلي المتمثل في إذلال النفس وإخضاعها أمام المرأة وكذا أمام الحاكم، أو الإقطاعي هي أمور تتماشى مع موقفهم الديني إزاء الله، كذلك فإن العلاقة بين الرجل والمرأة تكتسب دائماً دافعاً ميتافيزيقياً عميقاً في كينونة الإنسان بنفس الصورة التي تسير عليها علاقتهما الألوهية وفي هذا الشأن نقول: إن الإسلام يعني التسليم لإرادة الله أو التواضع والتذلل والخشوع والصبر تجاه الله - والمحبوب، وأن تكون علاقة عبودية، كخضوع العبد. هذه هي الأمور التي يتسم بها المؤمن - والمحب أيضاً، وهي في الوقت نفسه العلامات والفضائل التي يتسم بها المحب العربي تجاه محبوبته.

إن المرأة من هذا النوع تريد أن تكون متقلبة المزاج سواء في مشاعرها أو أحاسيسها أو تصرفاتها التي لا يمكن توقعها بين لحظة وأخرى. كما أن الرجل يستمتع بذلك التقلب في مزاجها، فهو يريدها مرة متشددة ومرضية مرة وحيناً فظة، ثم تعود إلى حنانها ورقتها، ثم تكون كالآلة الغاضبة، وعليه في كل هذه الحالات أن يبرهن على خضوعه لها كسيدة جديرة بذلك:

كوني متكبرة سوف أحتملك.
كوني مزهوة سوف أصبر عليك.
تعالي بذاتك سوف أخضع لك

تناءي عني سوف أتجه إليك
تحدثي وسوف أسمعك
مري وسوف أطيعك

تلك كانت الكلمات التي يخاطب بها ابن زيدون (١٠٠٣ - ٧٠) - شاعر الحب. الأندلسي الكبير، والمحب الكبير - حبيبته ، وهو الذي كرس حياته كلها لحب الأميرة الأموية ولادة. ولقد أحب الرجل ذلك الخضوع الكامل، لتلك النظرات البراقة ولتلك القوة التي لا تقارن:

عذبيني واظلميني وانأي بنفسك
ستظلين جميلة في كل الأوقات
وافعلي ما تشائين فمهما فعلت
ستظلين كما أنت وسأتحمل سواء أردت أم لا
كما أنني سأتحمل قسوتك

حتى عندما يغفر الشاعر لمحبوبته قسوتَها ويشكو لها الآلام التي يعاني منها بسببها، فإنه أيضاً يمتدحها، كما فعل الشاعر سعيد بن العاص حوالي عام ١٠٠٠ والذي ينتمي إلى قبيلة النبي (ﷺ):

أنشد حمايتك من تلك الآلام
لقد هوى قلبي كالقمر
عندما يخبو ، فإن قلبي ينكسر
كم أتمنى أن يشدني أكثر إليه
ولكنه يظل نائياً كما لو أنه لا يعرفني
ويقتلني بقسوة، أنا الذي أهواه

إنني أصبح من الحماس كَمَن
ينحني أمام لفح النار ولا تنهمر دموعه
وهو يتعبد فيه رغم أنه يحرقه

وهكذا يصبح الحب مرضاً لا شفاء منه. ومن المشاعر الحقيقية العربية هذا التساؤل: أي مرض أشد قسوة من الحب؟

إن من يصاب بهذا المرض
لا يطلب البرء منه
ومن يعانيه
لا يتمنى الشفاء منه

ويدخل تقبل الاتهامات الباطلة ضمن إطار إذلال الرجل لنفسه أمام محبوبته وللدلالة على مدى خضوعه لها. ويقول الفيلسوف والمُنَظِّر الشهير لفن الحب "ابن حزم" - الذي عاش في قرطبة (٩٩٤ - ١٠٦٤) في كتابه «طوق الحمامة»: "من أروع ما يحدث في الحب خضوع المحب لمحبوبته، وعندما توجه المحبوبة إليه اتهامات باطلة، فإنه يطلب صفحها عن كل ذنب ويعتذر عما بدر منه على الرغم من أنه بريء، وذلك لمجرد إظهار خضوعه لكلامها وقبوله لمعارضتها.. وخلال ذلك يكون طوال الوقت خافضاً بصره نحو الأرض، في حين تلقي عليه هي بين الحين والآخر نظرة من طرف خفي، وفي بعض الأحيان تتركه جامداً على هذا الوضع فترة طويلة، ثم يفترُّ ثَغْرها آخر الأمر عن ابتسامة خفيفة. وتكون هذه علامة منح الرضى من جديد. وهذا المشهد تعجز كل التفسيرات عن الإحاطة به وتعجز الألسن عن وصفه.

إلا أن الحب العربي هو دائماً أمر بالغ الجدية، حتى وإن كان يبدو في بعض

الأحيان لعبة مسلية، فإذا كان المؤمن عبداً لله فإن المحب يجعل من نفسه خاضعاً ومنفذاً لأوامر سيدته " لا يهم إن كانت فتاة بسيطة أو حتى تعمل في الخدمة :

لقد جعل مني الحب عبداً لك
ووضعني في مكانة العبد الذي
لا ينشد خلاصاً من عبوديته

وتصل سطوة الحبيبة على قلبه حداً كبيراً تجعله يشعر أن مجرد تفانيه يرفعه إلى مصاف أفضل وأنبل، كما أن خضوعه يجعله جديراً بعطفها ويجعلها تمنحه إما الحياة أو الموت.

عندما تنظرين إلي بحنان
فسوف تبعثين فيَّ رحمتك
بنبض الحياة وتحيين ما لم يمت فيَّ بعد

وهكذا فإن المحبوبة تصل بالنسبة إلى العربي إلى من يملك بين يديه مصير الناس ويحدد بقاءهم من عدمه، كما أن جوهر الإسلام هو[1] الاتكال التام - وهذا أيضاً هو جوهر ذلك الحب المتسامي، وهي فكرة رددها أيضاً المتصوف ابن الفريد الذي عاش في مصر، حين يطرق في شعره كافة الموضوعات الرئيسية في فن الحب العربي وأسلوب التعامل بين الأحبة.

(١) من مبادئ الإسلام، التوكل وهذا يقتضي العمل أولا. ولعل المؤلفة لم تقصد ما تقوله. فالاتكال ينهى عنه الإسلام لأنه عجز تام.

فن الحب العربي يصبح فناً رائجاً

إن تلك الفكرة الخاصة بالرجل المحب الذي يطلب في خضوع ودَّ سيدته، التي يتعبد في محراب حبها، كانت تعتبر بالنسبة إلى الغرب في عصر كانت المرأة فيه تشعر بمهانة عميقة بصفتها ابنة حواء الخاطئة وجعل منها زوجة خاضعة لسيطرة زوجها، كانت تلك الفكرة تعتبر بمنزلة صدمة وفي آن واحد معاً شيئًا مريحاً. ولقد سيطرت هذه الفكرة في البداية على مجتمع البروتستانت والبروقانس بكل قوة إذ. تخلى فيها العرب عام ٩٧٥ عن آخر معاقلهم في "لاجارو٢١٤فرنينه" وكان أغنى رجل في البلاد وأكبرهم سلطة بعد الملك، هو الدوق جويلام التاسع من أكويناشان ، والكونت فور بوميتير، قد تلقفا تلك الفكرة وحولاها إلى لعبة ذكية تخلب اللب. وقد وصفه أحد المعاصرين بأنه واحد من أكبر رجال البلاط في العالم وواحد من كبار من يمكنهم الإيقاع بالنساء، وفارس شجاع، وهو يحمل سلاحه ولا يجاريه أحد في خطب ود السيدات. إن التروبادور الأول الشهير أصيب بعدوى تلك الفكرة العربية في بلاط والده الذي أحضر معه من الحروب الصليبية الإسبانية مئة مغنية وراقصة عربية أسرن بالقرب من ماباسترو وكذا بعض شذرات من اللغة الإسبانية وما تناولته أفانينه من شعر الحب العربي. بالإضافة إلى ذلك فإن روابط أسرية تربطه مع بيوتات الأمراء الإسبانيين ، كذلك فإن لفظة (تروبادور) مشتقه من الكلمة العربية : طرب التي تعني الغناء والعزف وهنا يتضح بالفعل أن السلوك الإنساني خاصة عندما يتعلق بدور الأجناس ، وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة فإن أي شعب لا يأخذ عن الشعب الآخر شيئاً كأنه يحصل منه على مادة للاستخدام ليس كما لو أنه يقوم بصباغة رداء قديم بلون جديد يتمتع بأسلوب مميز وحركة وموقف

مميزين، ذلك أنه ما كان العربي - سواء أكان رجلاً أم امرأة - يمر به يعيشه أو على الأقل يشعر به، لا يمكن أن يكون شيئا أصيلاً أبداً بالنسبة إلى من ينتمون إلى أسلوب مختلف في الحياة، كما أنهم لا يقلدونه تماماً . وعندما يغني برنارت دي فينا دورن .

إني لا أطلب منك . . أيتها السيدة النبيلة
سوى أن تقبلي . . أن أقوم بخدمتك
ومهما كلفني الأمر . . فسوف أخدمك كما يؤدي العبد واجبه
ألا ترين أنني أضع نفسي في خدمتك
راضياً سعيداً خاضعاً لك

فإن ذلك الإنشاد من جانب هذا المطرب الذي قد يكون هو نفسه السيد الذي يعمل عنده الزوج - يعتبر مجرد تعبير عن الكياسة وتقديم شيء جذاب للسيدة لكي يحوز إعجابها . ولذا فإن ما يعتبر بالنسبة إلى العربي طبع أصيل في السلوك، يصبح الآن رؤيا شعرية في إطار اللعبة بين الفارس والسيدة - في إطار من روح أو فيرس - وهي لعبة أصبحت مألوفة وطبيعية في المجتمع الفرنسي والروماني . ولأن الموضوع العربي قد أثر على هذه الدوائر البلاطية ، خاصة في شكل الإنشاد العربي في الغزل فإن تقليده لم يكن سوى حلية مثيرة في اللعبة الاجتماعية غير الملزمة من أشكال الكياسة العربية - وإن كان ينظر إليها بجدية على طريقته الخاصة . وهكذا فإن لفظي - جالانتري ، جالانت- مشتقان من العربية كما أسلفنا القول ، ومن الدلائل الثابتة على قواعد لعبة البلاط هذه ، ما يؤكده الفارس بقوله :

إنني (أيتها السيدة) بين يديك

على استعداد دائماً لأن أخدمك

ومن بينها أيضاً اشتياقه لأن يكون بجانبها عبداً لها، وهذه أيضاً مجرد استعارة وحلية شعرية ذكية تقدم إلى السيدة لكي يبدو الفارس في نظرها في أبها مظهره ويحوز إعجابها. وهكذا فإنه عندما ينشر بيرفيدال حسب الأسلوب العربي ويظهر لمحبوبته شعرياً خضوعه التام وغيبة إرادته - أيضاً في شكل تصويري ويمتدح سطوتها التي لا تقارن بالوضع القانوني الفعلي - أيضاً مجازاً - لها بين السيدات ذات الحظوة الكبيرة، وهو ما يؤكده عن طريق امتداح قسوتها:

لقد وجدت نفسي خاضعاً تماماً لسطوتها

ولذلك فإنها أبداً لا تقول لي كلا

إنني مرتبط بها بشكل لا فكاك منه

إذ يمكنها أن تبيعني أو تهديني

إنه لأحمق من يقول حينذاك إن الخطوة الغريبة تسرني

إن قسوتها تبعث النشوة في أعماقي أكثر من أية نشوة عداها

كذلك فإن الشاعر يتناول فكرة الاتهام الباطل قائلاً:

دون ذنب طلبت الغفران

ودون جريرة طلبت الرحمة

تواضعها الجميل سلب افتخاري أمامها

وإذا لم يهب أحد لمساعدتي في القتال

فسوف يساعدني ركوعي وطلب المغفرة

وعلى الرغم من ذلك يجب أن تظل تلك اللعبة دوماً معلقة فهي التي تجعل التوتر الناتج عن الإثارة لا يتوقف - إذ لا يمكن تحقيق القرب من السيدة ، كما أن الحصول على رضائها صعب . ويظل الرجل دوماً في خدمتها شاكياً قسوتها، وإذا لم يكن في وسْعه المحافظة على قواعد اللعبة فإن عليه على الأقل أن يحافظ على المظهر . إن ذلك الارتقاء الخيالي بالسيدة يجعل المرء يشعر بالدوار - على الرغم من كافة أشكال الحظر المسيحية - تأخذ شكلاً دينياً أشبه بتأليه المرأة. ووفقاً للنموذج العربي تمارس المرأة "الرحمة" تجاه الفارس، الذي يتبتل فيها، وتكون هي "السيدة الرحيمة" حسب مفهوم (جراتياداي)[1] وهكذا تتطور خدمة المرأة إلى شكل من التقديس من قبل التروبادور (شعراء الحب) وبسبب نفورهم الهرطقي من الكنيسة ومبادئها على شاكلة تقديس القديسين المسيحيين . كما أن ماريا لم تتحول إلى "المادونا - العذراء أو "السيدة" أو المحبوبة التي تمنح الرحمة أو تمنعها حسب مزاجها، إلا في إطار كهنوت الحب المثير، فتحول الفارس بتقاليد حبه نحوها فأصبح يمتدحها كأجمل النساء " محبوبة السماء" مستخدماً أشكالاً تعبيرية حسية طاغية ليس بينها وبين لغة الحب الدنيوية علاقة كبيرة . نعم لقد بدأت الكنيسة الآن تستعين بكهنوت الحب الجديد لكي تستعيد الكفرة الذين ضلوا في متاهات اللذة الدنيوية . إلا أن تلك الطفرة المارقة بدأت تذبل بشدة حين أخذت أعاصير الحروب الصليبية الألبيجية الدموية التي نشبت عام ١٢٠٩ تهب طوال عشرين عاماً على جنوب فرنسا .

(١) تعبير إيطالي يعني الرحمة - الحظوة- الشكر .

الكلمات الحلوة

ولكن ماذا يحدث أيضاً حين يطأ ذلك المخلوق العربي الساحر في عباءته المحلية الأراضي الألمانية. فهو قد جاء إلى ألمانيا بطريقة غير مباشرة وتكونت عنده نظرته حال أغاني الحب وتقاليد خدمة الحب الألمانية. إن تأثره يكون متنوعاً ومتبايناً؛ فهو ينعشه ويثير خياله ولكنه يشعر أيضاً بغرابته ، أما بالنسبة للألمان فقد حدثت ثورة، ذلك أن البوح أمام المجتمع بالمشاعر والأحاسيس ذات التأثير العميق والتي كان المرء يفضل كتمانها في صدره، كان يعتبر أشبه بقعرية النفس. وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرين قد شعروا بخيبة أمل مريرة ورفضوا بشدة أن يساء استخدام الإفصاح عن هذه المشاعر في شكل لعبة بريئة خفيفة خالية من أية لمحة جدية (بالإحساس الجذري الحقيقي، وتتحول إلى لعبة معروفة صفحاتها سلفاً لا تهدف سوى إلى إثارة المتعة وإحداث تأثير انفعالي للعب بتلك الصرعة الآتية من الغرب وتصويرها بعد أن يتم تهذيبها هناك والخاصة بالمشاعر العاطفية والطاعة والشوق. وهكذا تجد الشاعر الكبير فيليب فون مورونجن يشكو من تلك اللعبة الفنية التي لا يهتم فيها المرء بالمشاعر الصادقة :

يا ويل من يظن أن من المناسب

أن يشكو من شيء لا يعتمل في قرارة نفسه

إن ذلك الخلط بين الظاهر والواقع " منذ أن بدأ المرء يقترف الحب الخاطئ مستخدماً تلك الكلمات الحلوة، وأن السيدة لا يمكنها أن تعرف من الذي تعنيه المشاعر وهذا استهجنه الشاعر فالترفون ديرفوجل فايدي إنما يظهر شكوك كثير من النساء في الكلمات الحلوة، وهذا ما ينبغي على الشاعر الفارس راينمارفون هاجينا حماية نفسه منه. ما انتقده الشاعر الفارس رانيمار فون هاجينا :

كثيراً ما توجه إلي الانتقادات المرةّ

فهم يقولون إنني أتحدث عنها كثيراً

وإن الحب الذي أكنُّه لها كاذب

وإنني عندما أتحدث عن سيدة الحب

فإنني بذلك لا أقصد بها خيراً

ولذلك فإنه يؤكد تماماً للسيدة بأنه عندما يقول إنه خادم مطيع فإنه يعني ذلك فعلاً:

إنني أقول دائماً وقت ما أريد يتاح لي

أيتها السيدة كوني رحيمة بي

إلا أنها لا تكاد تلقي بالاً إلى ذلك المطلب البسيط

ولكني أريد خدمتها على الرغم من ذلك

خدمة صادقة أعنيها حقاً

حيث إن السيدة الجليلة لا تبدو أنها تفهم معنى خدمته ولا تريد تقبلها. كما أنها لا تعيرها أي اهتمام. ويرتكز إجلال المرأة الجرمانية على الاحترام الذي لا مراء فيه من قبل الرجل الندّ وعلى قوة شخصيتها وأهميتها. فهي لا تمرّغ جبهتها بالتراب أمام عتبة الباب ذليلة صابرة صاغرة، كما أنها ليست بحاجة لأن يرتفع مقامها من خلال إذلال الرجل نفسه أو من اللاتي يطربهن تعبير «يجب أن يكون «سيّدك».

وليس ذلك بالشكل الجديد على الرجال والنساء وقد أحسّوا أنه هو الدور الذي يؤديه جنسهم البشري، بقدر ما أنفَذَ صبرهم تلك الشخصية الشكلية

للمشاعر والتي أفرغتها اللعبة الاجتماعية من مضمونها، وأساءت استخدامها وأملتها عليهم العادة الجديدة القادمة من البروفانس. ولقد كثرت شكوى الفرسان الذين تربوا في البلاط، كما يقول هنا رانيمار فون هاجينا:

ستذهب جهودك سدى
إذا خدمت من لا يستحق
إلى متى هذا التردد أيتها السيدة
لقد حاولوا إقناعك بأن البخل في الحب
شيء جميل وهو قول غير صحيح
إن بيتك مليء بالناس وبمشاعر الحب
ولكنك لا تشفقين على أيٍّ من يبذل نفسه فداك
فليس لك قلب يعطف على الناس
إن صدرك هذا مليء بالقسوة
بل إن جوانحك الصغيرة أشبه بالحجر
وهكذا تعلمت القسوة من هذا القلب المتحجر

وجرت العادة في ألمانيا أن يكون للشكوى من قسوة المرأة أنين للكبرياء الجريح وعلى الرغم من المحاولات التربوية التي تهدف إلى تغيير السلوك لم يستطع المرء القضاء على مطلب الالتزام المتكافىء والمتبادل وهو ما عبر عنه ڤالتر فون ديرفوجل ڤايدي معارضاً لتلك التعليمات الغريبة:

عندما لا أستحق تحية ثناء على إنشادي

فإنني أدير ظهري بظهري ووجهي كرجل ذي كرامة

وهذا يعني أنني أهتم بك كما تهتمين بي

أريد أن أمنح ثنائي لسيدات يشكرنني عليه

فما الذي يشرفني أكثر من الفخار؟

إن الحب وحده لا يساوي شيئاً

وإنما يجب أن يكون مشاركة معك

وأن يجوس خلال قلبين

ولا يشاركهما ثالث فيه

وإذا كنت لا تبالين بي

فقوليها بوضوح

حينذاك لا يكون هناك داع للخلاف

ولكن النساء أيضا يشكين مر الشكوى ومردُّ ذلك إلى أنهن قد صدقن تلك الكلمات المعسولة التي تصدر عن الرجال وسرن وراءهم فوق الشوك. أما الشاعر هارتمان فون فإنه قد صرف النظر نهائياً عن خدمة المحبوبة ويحكم على تقاليد الحب قائلاً :

لا أريد تحطيم سفينتكم

يامن تنشدون أغاني الحب

إن ما يصيبكم من أفعالكم

وعلى الرغم من إبداء التحفظات الكثيرة والانتقادات فإن ذلك الوليد الخلاّب لمشاعر الإثارة العربية - الذي يظهر لدينا بصورة مباشرة في الرداء الرومانسي والمشهور لدى دول المتوسط - قد ترك أثراً عميقاً ، كما أثار حماساً واضطراباً شديدين، وهي آثار تصل إلى عدة مئات من السنين ولم تنمح حتى الآن. ولقد عملت تلك الآثار من ناحية على إعادة صياغة دور الرجل والمرأة وإبرازهما في سجل جديد فيما يتعلق بأحد مجالات الحياة - وهو السلوك الاجتماعي - أعد في شكل الفارس ذي الأريحية والخادم الخاضع والقانع وبشكل " السيدة الفاضلة " التي تكتفي بقبول مدح الرجل لها وسعيه الشكلي لنيل رضاها . وفي الحقيقة إذا كان الأمر يتعلق بالحفاظ على الشكل المجرد وحيث تقف الشهامة عند الباب لاتتعداه كان يتم وصف الرجل بأنه «فارس شكلي" كما صوره ڤالترفون ديرفوجل ڤايدي :

إن البعض يبدون في صورة طيبة أمام الغرباء
وهم مخطئون في ذلك
فمن كان طيباً في القصر سيكون كذلك في البيت
وقد تبدو التربية والحياء أموراً مبهرة
أمام الغرباء لبعض الوقت
ولكن البريق الكاذب سرعان ما يختفي
فإذا أردتم معرفة الحقيقة
انظروا داخل سريرة المرء

(رمز المحبة العربية) الأنوثة الأصيلة تجذبنا إليها

ولكن حين تعلم الألمان أن الشهامة لا يُؤخذ بها بشكلها الجدي وأنها لا تعني الحب بأي حال وإنما تعني تلك الأكذوبة الرقيقة الخفيفة الأبدية المسماة الحب. كما وصفها مدنتكو، وحين أدركوا أن قيودها غير متلائمة؛ لأن ذلك الحب يخفي دون تحرّج ذلك البعد الداخلي كما أنها تهدف إلى امتلاك ناصية المشاعر والمؤثرات الشخصية حينذاك أخذ الحب مكانه الطبيعي لديهم وظل محتفظاً به حتى اليوم.

ولكن النموذج العربي أحدث تأثيرات أكثر عمقاً، ذلك أنّ المرء قد بدأ الإفصاح عن ذاته، وتحديد ماهيتها، وبدأ يدرك ما كان يعتمل، حتى الآن داخل أعماق الشخصية، وأن يتعرف المرء على أشكال جديدة للاقتراب بين الرجل والمرأة ويحاول أن يجد نفسه فيها، ويشعر بما تشعر به أو حتى يوجه إليها الاتهام. إنّ كلّ ذلك جعل أشكالاً جديدة تماماً لم تخطر قبلاً على البال بالنسبة إلى طبيعة الألماني تتفاعل مع بعضها، وهكذا فإن النموذج العربي الخاص بالخضوع والفناء في مخلوق أرفع، والنظر إلى شخص سام والشعور بحبه، والذي يطلق كل الطاقات المطهرة والساقية للأعلى، قد بدأ يأخذ طابعاً خاصاً وعمقاً مميزاً نتيجة للمثالية الأخلاقية الألمانية الجديدة ذات الطابع الخاص.

لقد كان الأمر يبدو كما لو أن التقييم الكبير لشخصية المرأة الجرمانية، التي طغى عليها بشكل مؤلم الكراهية للمرأة النابعة من الإنجيل، والرهبانية، قد وجد منفذاً له في ذلك التقدير الجديد للمرأة. أو كما لو أن الوعي الذي لم تدّمره تماماً وسائل الكنيسة القهرية بأن هناك "شيئاً مقدساً" يطلق عليه لفظ Tacitus داخل المرأة ناتجاً عن جذورها العميقة داخل وجودها، يحاول الهرب في صورة المحب الذي يخدمها بخضوع من خلال حب نظيف روحاني في شكل واضح.

وهكذا تحول الفناء في الحب إلى نوع من التطهير للمحب. . كما تصبح المرأة المحبوبة تجسيداً للقيم الأبدية وموصلة لها وهي التي يسمو الرجل بها إلى أعلى وذلك في إطار الفكرة الأساسية (المبتغاة) التي عبر عنها غوته في ختام رواية فاوست حين قال : " الأنوثة الأبدية تجذبنا إليها " .

جرتشن في الزنزانة وحين يرسم «السيد الرب» في بداية مسرحية فاوست الشعرية طريق فاوست على أنه الطريق إلى "الوضوح" فإن جرتشن في النهاية هي التي تقود الحبيب مرتين إلى « الوضوح» ، وهذا هو المشهد، لقد عادت هيلين لتوها إلى مدينة المولَى، وهنا تظهر أمام عيني فاوست من إحدى السحب صورة خلابة، هي صورة المحبوبة الأولى جرتشن وفي ذلك المنظر يتم التمهيد للفصل الختامي من فاوست :

إن الشكل الجميل يتسامى كجمال الروح

لا يتحلل، وإنما يرتفع في الأثير

ويأخذ معه أفضل ما في النفس

وفي النهاية : تنقذ الملائكة فاوست وهو يحتضر من مغستو، ثم يصدر نداءه إلى جرتشن التي تقترب من معبد الآلهة :

تعالي وارتفعي إلى السماء

وإذا أدركك سوف يسير في ركابك

وهكذا يحدث في نهاية المسرحية أن "الأنوثة الأبدية" تجذب من ظلّ طوال عمره يحب جرتشن. وفي الحقيقة فإن جوتة قد خلق في "فاوست" وفي "شكوى مارينبادر شكلاً وسطاً لتبجيل المرأة في التقاليد العربية - الألمانية حيث

يقترب بحب المرأة من المجال الديني، وحيث تمثل المحبوبة الشيء الأبدي غير المحدد، أي الإلهي :

هناك دافع يعتمل في صدورنا النقية
لأن نفنى في شيء سام ونقي ومجهول شاكرين بإرادتنا الحرة
نحلَّ اللغز الذي ظل أبداً مجهولاً
نسميه : كن تقياً - إنني أشعر بذلك القرب الروحي
عندما أقف أمامها .

إن اللغة ، والإشارة، والموقف في رمز الإثارة العربية، وفي الحب الذي يدنو إلى التسامي والرقي تجاه المرأة الجديرة بالابتهال، سواء كان ذلك نوعاً من المجاز الاجتماعي غير الملزم أو لخوض تجربة تهز كيان القيم غير السوية في مواجهة المحبوبة صعبة المنال، وسواء كانت استعارة شعرية أصبحت من المكونات الثابتة لقانون الحب السامي، يمكن أن يستخدمها كل محب حتى في العصر الحاضر، فإنها لم تختلف أكان ذلك في أشعار الحب الألمانية أو في العلاقة الخاصة بالصلات بين الجنسين، على الرغم من أنّ أسلوبها لم يكن هو نفسه أسلوبنا في الأساس.